أما «التموجات»، فهي، حسب تصنيف الكاتب عمل أدبي، اسلوبا ومضامين، حافل بكل رائع وجميل. للشعر فيها رصيد كبير، والاحساس فيها، تجاه الاحداث، عنيف متوتر وجارح.

هذا الجزء، رأى فيه البعض، صعوبة أدبية، لم نر لها أثرا. وهو لا يعدو، أن يكون امتدادا معمقاً لما سبق. ثمة شخصيات، أجاد الكاتب صياغتها وطرحها، خاصة غيلان الدمشقي وبشر القراوي وريم.

لقد تناول القاص، موضوعة على غاية من الحساسية. إنها مشكلة بعض الثائرين الحقيقيين، الذين يتحولون في المدن الكبيرة، أو في مواقع السلطة، إلى رواد ملاهٍ ليلية وهواة مظاهر وبذخ. وتجرفهم مقادير الحياة الجديدة. يصحون من حين لآخر، صحوات مجفلات، ليعودوا إلى الانغماس في حماة ما وصلوا إليه بعيدا عن طموحات الثائرين وأحلامهم.

وهو لا يتورع عن التحدث، ببساطة جارحة، عن مملكة ما ، في المدينة الكبيرة، التي يفترض فيها أن تكون بؤرة ثورية حقيقية فاذا هي مسرح للقتلة والحشاشين و...

طبعا الصورة ليست بهذه القتامة، إلا أن مرارة الفنان تجعله يبالغ في تأثره بكل ما يحرض عليه، الا يصيبه التشوه .

لسنا هنا، في مجال الدخول في معادلة اشعال شمعة بدل أن نسب الظلام، ولكننا أيضا، لا نرضى، إذا تعاملنا مع الأشياء بهدوء وعمق، أن نسلط كل أضوائنا على العاهات فقط ونترك كل ما عداها.

تاريخ الثورات في العالم، حافل بالايجاب والسلب، ولو أن الحريصين على تلك الثورات، أهملوا جانبا على حساب الآخر، لتشردت كل مشرد.

لقد وضع الكاتب أصابعه العشرة، في الجرح، وذهب بعيدا، الامر الذي يدعونا إلى كثير من الفكر والدراسة، مع ضرورة عدم اهمال ملاحظتنا السابقة.

كل المقولات، يمكن أن تحرّف وتشوه، إن لم يمسك القادرون على الامساك، بالعصي في موضع التوازن الدقيق. كما حصل في مقولة «التجرد الميداني» التي حولت ريم إلى فوضوية قاسية على نفسها وعلى كل ما في الوجود من قيم.

نهاية بشر القراوي الذي هو أصلاً يعقوب شحادة،كانت قاسية إلى حد الرعب. فقد ذهب ضحية الاغراق في المتع والملذات. ولم يترك لقضيته إلا ساعات الفراغ ليلوك الكلمات القديمة، التي كانت تعيش في دمائه ونسي أغلبها الآن. يرميها بلا مبالاة واستهتار.

لقد قتلته امرأة، وعميلة للأسف.

ثمة لمسات كاوية في الرواية، كأن يربط الكاتب بين ساحل غزة وساحل طرطوس في التقاء أمواج البحر في بيروت «الرملة البيضاء» بين الصحراء التي اغتسلت فيها الغزلان، والمدن البعيدة، امتداد بحر لا يعبر، وغيلان الدمشقي، من شرفة الرملة البيضاء، يرى البحر الممتد جنوبا حتى غزة، وشمالاً حتى طرطوس؛ تحت الشمس، يرى البحر الذي انتظر بأعصار الريح الاسرائيلية والريح العربية...» ثم: «في الذاكرة لمعت شواطىء طرطوس الحزينة، فخفق القلب الحزين،سقطت من العين لؤلؤة إمتلأت بها ضدقة...»

صورة هذه حزينة وكاوية. ولكن، من يستطيع أن يمنع الحزن من التسرب إلى أعماق الفنان،وعبر الصور الجميلة وربما المشوشة أحيانا، حين يرى إلى كل أحلام الشباب، وإلى أيام عمره تتهاوى تباعا تحت الاقدام الوحشية، أقدام وحوش بربرية لا علاقة لها بالافراس ولا الفرسان.

أخيرا، فصلا «الانسحاب» و«المسافات» أخذا بكاملهما، تقريبا، من كتاب «الطريق إلى تل الزعتر» الصفحات (٥٩ - ٦٠ - ٦١ .. ٦٢ - ٦٣)! الأمر الذي اقتضى بالضرورة اشارة، ولو خجولة إلى ذلك في متون الرواية.